



يتحملّ الروس المسؤولية الكبّرى في تعطيل التوصل إلى حلّ سياسي في سوريا، وفي تحويل الصراع السياسي الذي أثّاره حركات الاحتياج التحرّري في أكثر من دولة عربية إلى حرب إبادة جماعية، وتدمير منهجي للدولة في بنياتها الاجتماعية والاقتصادية والعمّرانية في سوريا، فقد ترك المجتمع الدولي، والمحور الغربي خصوصاً، المبادرة، منذ البداية، في يد الروس. من جهةٍ بسبب تراجع اهتمام الغرب عموماً بمصير المشرق، بعد حروب فاشلة في العراق وأفغانستان، ومن جهةٍ ثانية، بسبب عدم وجود مصالح كبيرة له في سوريا، ومن جهةٍ ثالثة تفهمها لمصالح إسرائيل، ومجاراة لاستراتيجيتها الهدافة إلى إjection أي تحركٍ شعبيٍ يُفضي إلى تغيير في طبيعة الأنظمة الأقلوية المعزولة عن شعوبها، ويهدّد بتغيير الحسابات والتوازنات الإقليمية، وإضعاف حزام الأمن الذي تحيط به إسرائيل نفسها، من خلال التفاهم مع النظم الاستبدادية، وتعزيز قطاعها عن شعوبها واعتمادها على الدعم الخارجي .

ولكن المحور الغربي لم يكن الوحد الذي راهن على موسكو للتخلص من عبء ما سوف يظهر بمثابة "معضلة سوريا"، والذي سلم لفلاديمير بوتين وحلفائه الإيرانيين جميع الأوراق في المواجهة السورية، السياسية والعسكرية، وإنما حذوه العرب أيضاً. كما أظهرت ذلك المبادرة العربية التي حكمت بمضمونها جميع المبادرات الدولية التالية، والتي نصّت على مخرج سياسي يقوم أساساً على تشكيل حكومة انتقالية مكونة من طرفي النزاع، أي من السلطة والمعارضة، تقوم بالإعداد لانتخاباتٍ تحت إشراف دولي، تفتح صفحة جديدة في تاريخ سوريا الحديثة. وقد قبلت المعارضة، الممثلة بالمجلس الوطني آنذاك، وكذلك المعارضات الخارجية عنه، هذه المبادرة العربية في فبراير/ شباط 2011، وسعت إلى تعميق الاتصالات بموسكو من أجل تأكيد قبولها بهذا الحل الذي كان يهدف إلى تطمّين قطاعٍ واسع من الرأي العام السوري، الخائف من التغيير أو الموالي للأسد، على أن الانتقال السياسي لا يعني قلب الطاولة على أحد، لا طائفياً ولا سياسياً ولا اجتماعياً، وإنما

إعطاء الشعب، بجميع فئاته، الحق في اختيار ممثليه، والعودة بسوريا من عصر الحكم بالقوة والإكراه والعنف إلى عصر الحكم الطبيعي والسلمي، كما هو قائم في الأغلبية الساحقة من بلدان العالم اليوم. ولم تترك المعارضة، فيما بعد، وسيلةً لم تستخدمها لإغراء موسكو، وتطمينها على أسبقية مصالحها في سوريا، فيما لو قبلت بقيادة عملية التحول السياسي، وتفكيك القنبلة التي يمثلها نظام الأسد نفسه، قبل أن تنفجر في البلاد وتحرق الزرع والضرع فيها.

ولكن جميع من راهنوا على موسكو للخروج بحلول سلمية تسوية، تجنب سوريا الدمار والقتل الجماعي والتهجير القسري، وفي مقدمتهم المعارضة السورية، وأنا في المقدمة، باء رهانهم بالفشل. ولا نزال، لم نخرج جميعاً من هذه الحلقة المفرغة التي وضعنا أنفسنا فيها، أو سلمنا بوضع الأمل الوحيد في الخروج من المواجهة، بأقل الخسائر، على إرضاء روسيا أو التعاون معها. وقد تفاقم حجم هذا الرهان بعد سنوات الحرب الثمانية الطويلة، عندما قرر الغرب، ونحن في إزاره، أن روسيا ربما كانت الطرف الوحيد الذي يملك اليوم إمكانية إخراج إيران من سوريا، وتفكيك قنبلة أخرى، هي حرب إقليمية طويلة ومدمرة، يمكن أن تندلع بالوكالة على أرضنا بين مليشيات إيران المتعددة الجنسيات، والتي لا يهمها مصير الأرض التي تحارب عليها، ولا مصير شعبها، وإسرائيل التي لا تقل استهتاراً بالأرواح البشرية، ونزوعاً لتحويل البلد المشرقي إلى صحراء قاحلة، وساحة حرب "دافعية وواقية".

شكل الروس، منذ الأسابيع الأولى لاندلاع الاحتجاجات السلمية، مجلس الأمن، بذرية الحيلولة دون تدخل عربي يعيد تجربة ما حصل في العراق وليبيا من قبل. وزوّدوا جيش الأسد بالأسلحة والمستشارين العسكريين، ودافعوا عن التدخل العسكري والسياسي الواسع النطاق لإيران في تسيير آلة الحرب والسياسة في دمشق، ودعموا تغلغل مليشياتها الطائفية في الأجهزة والدوائر العسكرية والإدارية. وأجهضت الخارجية الروسية جميع المساعي والمبادرات الدولية لدفع الأمور في اتجاه البحث عن حل سياسي، وفي مقدمها مبادرة جامعة الدول العربية للتسوية السياسية (أواسط شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام 2011)، ومعها بعثة المراقبين العرب إلى سوريا. كما أجهضت موسكو المبادرة العربية الدولية التي أوكل إلى الأمين العام للأسبق للأمم المتحدة، كوفي أناan، مهمة العمل على تطبيقها (فبراير/شباط 2012) والتي افترضت إيقاف إطلاق النار في 10 إبريل/نيسان 2012، وكذلك المبادرة التي ناقشتها الصين في نوفمبر/تشرين الثاني 2012 مع بعوث الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، الأخضر الإبراهيمي، وكانت تشمل وقف إطلاق النار على مراحل، وتشكيل هيئة حكم انتقالية.

هكذا أفرغت موسكو جميع المساعي الدولية بشأن سوريا من مضمونها، وقوّضت جميع المبادرات الأهمية للتوصل إلى حل سياسي، بما في ذلك مؤتمرات جنيف جميعاً، واختلفت تجمعات باسم تجمع أستانة، ضمت إليه طهران، الشريك الأشرس والأول في الحرب على السوريين، للالتفاف على القرارات الدولية، وتعطيل مفاوضات جنيف، وتحييد تجمع أصحابه سوريا، والانفراد بالحل الذي تبين فيما بعد أنه لا يعود أن يكون إعادة تأهيل نظام الإبادة والتهجير القسري، وتحويل سوريا إلى مزرعة عبودية لآل الأسد وأتباعهم. ولم تترك وسيلة من الحرب، والكذب والخداع، لم تستخدمها، من أجل الإيقاع بقوى الثورة والمعارضة، وقطع الطريق على أي مشاركة لها في أي حل سياسي أو تغيير قادم، فبذلت جهوداً مستمرة وهائلة، لتقسيم هذه القوى المقسمة أصلاً وتفيتها، وإثارة الفتن والخلافات في ما بينها، ومنها دعمها أكبر عدد ممكن من المنصّات السياسية المصطنعة، ومراكز القوى التابعة لها، حتى لم يعد للمعارضة أي مركز جدي أو قرار. وضاقت صدرها بشكل أكبر بجميع تلك القوى والمؤسسات والشخصيات التي تقدم العون للمدنيين المشردين، أو الذين قوّضت شروط حياتهم، وجعلت من الهجوم على القبّعات البيضاء التي اتهمتها بالإرهاب هدفاً حربياً أسمى من بين أهدافها. وغطت على جميع الأعمال والخطط الإنسانية التي مارسها النظام، لتحطيم المجتمعات المحلية، وإخلاء المدن والقرى من سكانها، قصفاً أعمى وحصاراً وتجويعاً، من أجل استعادة السيطرة على المناطق المحررة. وبررت جميع انتهاكات نظام الأسد لحقوق المدنيين واتفاقية جنيف الخاصة بالحرب، قبل أن تتبّعها هي نفسها، وتجعل من تدمير المدن والقرى سلاحها الأمضى لهزيمة الثورة

السورية. وبعد أن ظهر فشل المليشيات الإيرانية وجيش الأسد الطائفي أمام القوى الثورية، لم تتردد موسكو في التدخل العسكري المباشر بسلاحها الجوي وعدتها الصاروخية، للقضاء على مقاومة الشعب السوري، بذراعه القضاء على تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) الذي لم تواجهه في أي معركة حقيقة.

على الرغم من خيبة أمل الأطراف الدولية والعربية والمعارضة السورية من سلوك موسكو، وافق الجميع على ما سميت خطة روسيا لوقف إطلاق النار، بدءاً بتطبيق ما سميت مناطق خفض التصعيد، قبل التوصل إلى وقف نار شامل، ومدخلاً للحل السياسي القائم على قرار مجلس الأمن 2254. وقد تبيّن بسرعة بعد ذلك أن هذه الخطة لم تكن سوى غلالة لإخفاء الخطة الحقيقية الهدافـة إلى تقويض قاعدة سيطرة المعارضة والانفراـد بها، منطقة منـطقة، قبل القضاء عليها وفرض الحل الروسي القاضـي بالإبقاء على نظام الأسد وتأهيله دولـياً. وهـكذا لم تـردد في خيانـتها وعـودـها، والانقلـاب على القـوى التي محضـتها ثـقـتها من بين فـصـائل المـعـارـضـة، فـسلـمـتها مـكتـوفـة اليـدـيـن إلى جـلـديـها من مـليـشـيات الأـسـدـ الذين لم يـوـفـروا وـسـيـلـةـ أيضاً لـتـنـكـيل بـمـعـارـضـيـهمـ السـابـقـينـ، وـزـجـهمـ فيـ الصـفـوفـ الأولىـ فيـ مـعـارـكـهمـ المستـمرـةـ، وـعـلـىـ جـبـهـاتـ القـتـالـ الذيـ لمـ يـتـوقفـ يومـاًـ مـنـذـ ثـمـانـيـ سـنـوـاتـ. وـاـكـتـشـفـ هـؤـلـاءـ أـنـ ضـمـانـةـ مـوـسـكـوـ التيـ رـكـنـواـ إـلـيـهـاـ لمـ تـكـنـ سـوـىـ خـدـعـةـ وـقـعـ فـيـهاـ الـبـسـطـاءـ مـنـ الـمـقـاتـلـينـ، وـأـصـبـحـواـ بـسـبـبـهاـ طـعـاماـ سـائـغاـ لـحـرـوبـ الـأـنـقـامـ الـجـديـدـةـ.

ليس هناك أي شك في أن هذا التسلـيمـ منـ العـربـ، وـمـنـ الـمحـورـ الغـرـبـيـ، وـمـنـ الـمـعـارـضـةـ السـوـرـيـةـ نـفـسـهـاـ، بـعـدـ وـجـودـ خـيـارـ آخرـ سـوـىـ "ـالـحلـ الروـسـيـ"ـ هوـ الـذـيـ طـمـعـ الرـوـسـ بـالـجـمـيعـ، وـأـطـاشـ صـوـابـ قـادـتهمـ، وـدـفـعـهـمـ إـلـىـ رـفـعـ ثـمـنـ "ـمـسـاـهـمـهـ"ـ الـمـوـعـودـةـ فـيـ إـيـجادـ حلـ لـلـنـزـاعـ وـإـطـفاءـ النـارـ السـوـرـيـةـ، إـلـىـ درـجـةـ جـعـلـهـمـ يـعـقـدـونـ أـنـ أـصـبـحـ فـيـ إـمـكـانـهـمـ أـنـ يـطـمـحـوـ، فـيـ ما وـرـاءـ سـيـطـرـتـهـمـ عـلـىـ سـوـرـيـةـ ذاتـهاـ، وـأـنـتـزـاعـ ماـ يـشـبـهـ الـوـصـاـيـةـ الدـوـلـيـةـ الشـرـعـيـةـ عـلـيـهـاـ، وـجـعـلـهـاـ جـزـءـاـ مـنـ أـمـلـاـكـهـمـ وـمـنـاطـقـ نـفـوزـهـمـ الـمـبـاـشـرـةـ وـالـأـسـاسـيـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ مـتوـسـطـيـةـ حـسـاسـةـ اـسـتـراتـيـجـيـاـ، طـالـماـ طـمـحـوـ إـلـىـ اـحـتـلـالـ مـوـقـعـ فـيـهـاـ، وـطـمـحـوـ إـلـىـ تـنـازـلـاتـ الـمـبـاـشـرـةـ وـالـأـسـاسـيـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ مـتوـسـطـيـةـ حـسـاسـةـ اـسـتـراتـيـجـيـاـ، وـالـعـقـوبـاتـ الـاقـتصـاديـةـ الـمـعـلـقـةـ بـيـنـ رـوـسـيـاـ وـالـغـرـبـ مـنـذـ عـقـودـ.

بالـغـ روـسـ فـيـ أـطـمـاعـهـمـ، وـنـاـوـرـوـ كـثـيـراـ فـيـ سـعـيـهـمـ إـلـىـ تـأـجـيلـ الـعـمـلـ مـنـ أـجـلـ حلـ سـيـاسـيـ، عـلـىـ أـمـلـ أـنـ يـرـضـخـ الغـرـبـ، وـيـقـبـلـ شـرـاكـتـهـمـ الدـوـلـيـةـ، لـاـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـحـدـهـاـ. وـخـدـعـتـ مـوـسـكـوـ نـفـسـهـاـ بـالـأـمـلـ فـيـ أـنـ تـنـتـزـعـ تـرـكـياـ أـيـضاـ مـنـ الـمـحـورـ الغـرـبـيـ، لـتـرـاـكـمـ مـكـاـسـبـ جـيـوـسـتـرـاتـيـجـيـةـ إـضـافـيـةـ، وـتـغـيـرـ التـواـزنـاتـ الدـوـلـيـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ، كـمـ اـسـتـهـانـتـ بـأـطـمـاعـ طـهـرـانـ وـتـمـسـكـهـاـ بـحـلـ الـخـلـافـةـ الشـيـعـيـةـ الـمـشـرـقـيـةـ، أـوـ بـمـشـرـوـعـ الـإـمـپـرـاطـورـيـةـ الـفـارـسـيـةـ الـمـجـدـدـةـ، لـاـ فـرـقـ، فـوـجـدـتـ نـفـسـهـاـ، بـعـدـ تـعـدـيلـ السـيـاسـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ، وـتـنـاحـةـ الـقـيـادـةـ الـإـيـرانـيـةـ، فـيـ وـضـعـ أـقـلـ ثـبـاتـاـ وـتـمـاسـكـاـ، وـرـبـماـ مـهـدـدـةـ بـانـفـلـاتـ الـأـمـورـ الـتـيـ أـمـسـكـتـ بـهـاـ بـقـوـةـ مـنـ بـدـاـيـةـ الـأـزـمـةـ السـوـرـيـةـ، وـهـيـ فـيـ طـرـيقـهـاـ إـلـىـ فـقـدـانـ الـمـبـادـرـةـ الـدـبـلـومـاسـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ.

لاـسـتـعادـةـ الـمـبـادـرـةـ، وـالـضـغـطـ عـلـىـ جـمـيعـ الـأـطـرـافـ الـأـخـرـىـ الـمـسـتـعـدـةـ لـتـجاـزوـ "ـالـعـهـدـ الروـسـيـ"ـ، لـمـ يـجـدـ بوـتـيـنـ وـسـيـلـةـ أـخـرـىـ سـوـىـ الـقـيـادـةـ الـتـيـ اـعـتـمـدـهـاـ قـبـلـ اـسـتـلامـهـ الـحـكـمـ فـيـ الشـيـشـانـ، وـالـتـيـ مـهـدـتـ لـهـاـ الـاـسـتـلامـ أـيـضاـ، وـالـتـيـ بـوـأـتـ رـوـسـيـاـ الـمـكـانـ الـأـولـ فـيـ سـوـرـيـةـ أـيـضاـ، وـفـرـضـتـ أـسـبـقـيـةـ مـصـالـحـهـاـ عـلـىـ مـصـالـحـ الـدـوـلـ الـأـخـرـىـ كـافـةـ، بـمـاـ فـيـهـاـ السـوـرـيـةـ، وـهـيـ وـضـعـ آـلـةـ الـحـرـبـ الـكـبـرـىـ الـتـيـ يـمـلـكـهـاـ فـيـ خـدـمـةـ أـهـدـافـهـ الـجـديـدـةـ، وـالـبـدـءـ بـالـتـدمـيرـ الـمـنهـجـيـ لـمـنـطـقـةـ خـفـضـ التـصـعـيدـ الـوـحـيـدةـ الـمـتـبـقـيـةـ فـيـ شـمـالـ غـرـبـ سـوـرـيـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ غـرـبـ الـفـرـاتـ، فـيـ إـدـلـبـ وـرـيفـ حـمـةـ الشـمـالـيـ.

لـنـ يـسـتـطـعـ روـسـ أـنـ يـرـبـحـوـ رـهـانـهـمـ الـمـهـدـدـةـ بـالـخـسـرـانـ عـنـ طـرـيقـ تـجـدـيدـ سـيـاسـةـ الـأـرـضـ الـمـحـرـوقـ، وـالـقـصـفـ عـلـىـ الـمـدـنـيـنـ، وـتـهـجـيرـهـمـ لـلـضـغـطـ عـلـىـ الـأـطـرـافـ الـأـخـرـىـ، فـقـدـ فـشـلـ روـسـ، فـيـ السـنـوـاتـ الـثـمـانـيـةـ الـمـاضـيـةـ الـتـيـ انـفـرـدـواـ فـيـهـاـ بـمـاـ يـشـبـهـ التـفـوـيـضـ السـيـاسـيـ، فـيـ الـاسـتـجـابـةـ الصـحـيـحةـ لـلـثـقـةـ الـتـيـ وـضـعـهـاـ الـمـجـتمـعـ الـدـوـلـيـ، وـسـوـرـيـونـ كـثـيـرونـ، بـمـنـ فـيـهـمـ فـئـاتـ مـنـ موـالـيـ نظامـ الـإـبـادـةـ، بـهـمـ. وـهـمـ مـضـطـرـوـنـ، بـسـبـبـ ذـلـكـ مـنـذـ الـآنـ، إـلـىـ أـنـ يـسـتـبـدـلـوـاـ الـثـلـاثـيـةـ الـجـديـدـةـ الـتـيـ تـجـمـعـهـمـ مـعـ إـسـرـائـيلـ

والولايات المتحدة، والمنتظر أن تجتمع قريبا في القدس المحتلة بثلاثية أستانة التي لم يبق من ذاكرتها سوى رائحة الخدعة والخيانة التي تفوح من اتفاقيات خفض التصعيد والمصالحات التي رعتها، والتي راهنت عليها من أجل سحق تطلعات الشعب السوري وأماله .

والدرس الرئيس الذي علينا أن نأخذه من هذه المراهنة الخائبة على موسكو، نحن السوريين، بعد المراهنة الفاشلة، في بدايات الحرب المفروضة على السوريين، على التدخل الغربي، والذي قسم صفوفنا على لا شيء، هو أن لا ننتظر الخير من يسعى لنا بالشر، وأنه لا بدّيل لأي شعبٍ من أجل تحقيق أهدافه المشروعة سوى الاعتماد على نفسه وتنمية قواه الذاتية. وقد كان مصير الصراع بأكمله سيختلف جذرياً، لو أننا نجحنا، منذ بداية الصراع المسلح، وبعدأخذ العبرة من درس بابا عمرو في حمص، وهي أول الأحياء الثائرة التي سقطت تحت وابلٍ من القصف والدمار، في قلب الطاولة، وتحويل المواجهة الساكنة في الأحياء والقرى إلى مقاومة شعبية متحركة، طويلة المدى ومتعددة الأشكال، تعتمد على ذاتها وتطور قواها تدريجياً، ومن خلال المواجهة ذاتها. وربما لن يبقى لنا خيار آخر اليوم بدّيل عن هذه المقاومة، إذا ما فشلت الدول المتنازعة على مناطق النفوذ والسيطرة، كما هو جليّ اليوم للجميع، في تخفيض سقف تطلعاتها، لإعطاء جرعة أمل للسوريين، لتحقيق تطلعاتهم التي أصبحت، بعد القتل والتدمير الإجراميّين، واجبة، وليس شرعية أو مشروعة فحسب.

المصادر:

العربي الجديد